من صور الإبداع الأندلسي

أ.د/ محمد مجيد السعيد

الجامعة الإسلامية – بغداد

كان من حظ الأدب الأندلسي أن يقع بين اتجاهين متفاوتين متباينين، فمن النقاد والباحثين، من ارجع كل فضائل الأندلس الى أصول اسبانية أو الى الثقافات الأجنبية التي عرفتها اسبانيا قبيل دخول المسلمين إليها، وبالمقابل كان هناك اتجاه آخر يرجع كل ما أنتجته العقلية العربية المسلمة في شبه جزيرة ايبرية الى أصول شرقية عربية وإسلامية وبذلك تتجرد العقلية الأندلسية من كل خاصية ومن كل فضيلة وإبداع وتجديد، وبين هذا وذاك ظهر اتجاه ثالث يمثل الوسطية ويرى بواقعية وإنصاف أن الأندلسيين لم يكونوا مقلدين وتابعين لإسلافهم وأجدادهم سواء من الغرب أو الشرق وإنما كان لهم عطاؤهم الخاص بهم وكانت لهم مبادراتهم وشخصيتهم التي تبذل كل جهد لان تكون محددة ومميزة عن غيرها وقد تنبه الى ذلك أبناء الأندلس منذ نهايات القرن الرابع وبدايات القرن الخامس الهجريين وبدؤوا يرفضون دعوى التبعية والتقليد للمشارقة فكتب ابن بسام موسوعته الذخيرة للرد على أولئك، ولبيان قدرات الأندلسيين وعطاءاتهم الادبية والفكرية، ومن ثم ظهرت مؤلفات أخرى لتأكيد قابلية الأندلسيين على الإبداع والتفرد في مجالات الأدب وغيرها من أمثال مؤلفات ابن خاقان وابن دحيه وابن سعيد المغربي وكتب التراجم التي ضمت مئات الأعلام من ذلك كتاب تاريخ قضاة الأندلس والجذوة والبغية والصلة وصلة الصلة وتكملة الصلة والذيل والتكملة وغيرها، ولا نريد هنا أن نتوسع في هذا الموضوع ويكفي إن نشير الى أعلام كان لهم تأثير كبير في مسار الفكر العربي... بل والفكر الإنساني بعامة في المجالات الادبية والتاريخية والفلسفية والفقهية والزراعية والطب وغير ذلك من العلوم ومن أولئك على سبيل المثال: ألقسطلي وابن شهيد وابن حزم وابن زيدون وابن خفاجة وابن زهر وابن

سعيد ولسان الدين الخطيب وابن مضاء وابن عصفور وابن طفيل وابن رشد ومحيي الدين بن عربي والششتري وغيرهم كثير.

ولعل ما وقع على الأدب الأندلسي من ظلم أكثر من غيره فقد اتهم بالتقليد والتبعية المطلقة للمشارقة، وانه مهما ارتفع ونما فلن يطول قامة الأدب المشرقي ولن يصل الى قمته، ولكن من ينظر الى الأدب الأندلسي – شعره ونثره – نظرة متأنية قائمة على أسس نقدية موضوعية محايدة سيجد أن معطيات الأندلس الادبية فيها الكثير من التفرد والإبداعية، وفيها الكثير من الخصوصية التي لا يمكن اتهامها بالتقليد والمحاكاة والاحتذاء، وعلى كل حال فان الدارس لا ينفي كون الأدب الأندلسي هو امتداد للأدب العربي، وهو فرع من فروع تلك الشجرة السامقة الراسخة التي هي أم للأدب العربي بعامة،في شرقها وغربها، في عراقها وشامها، في مصرها ومغربها، وما دامت تلك الغصون والفروع تمتح من نسغ واحد، وتتغذى من تربة واحدة، وتتنفس من أجواء واحدة، فلا بد أن تتقارب الألوان والأذواق وأن تتناسق الخصائص والمقومات، ويبقى الاختلاف والفرق والتباين فيما تعكسه المؤثرات الخارجية على الثمار؛ مؤثرات الطبيعة، والعناية البشرية، والأصداء النفسية واسعة الثقافة وعمق التجربة، وأصالة الموهبة الى غير ذلك مما يعطي النتاج خاصيته وسماته الذاتية التي تفرده عن الآخرين، فمثلما يمكن وضع أسس وخصائص وفوارق بين الأدب العراقي والأدب المصري أو الشامي في زمن معين وفي ظل دولة معينة، رغم التقارب والتلاقي بينها في كثير من جوانبها، فكذلك يمكن أن يقال عن الأدب الأندلسي من فوارق بينه وبين غيره من أقطار الدولة العربية الإسلامية، فاللغة واحدة والنبع التراثي واحد وهو القران الكريم بخاصة ثم الأحاديث النبوية الشريفة ثم الأدب الجاهلي والأدب العربي بعامة، وتبقى الفواصل بين واحد وآخر هي ما تضيفه التجربة والمعاناة الإنسانية التي يحققها المنتج، وفي غناء تجربته الذاتية وعمق ثقافته ومعارفه.. المواد واحدة ولكن الصناع مختلفون متباينون، وكل واحد منهم يعبر عن حالة معينة تعكس خلاصة تجاربه وقدراته الذوقية والفنية.

وإذا كنا نرى الأديب الأندلسي قد بدأ مرحلة التقليد والمحاكاة للمشرقي في السنوات الأولى لدخول العرب الى الأندلس، فذلك أمر طبيعي ومتوقع، ولكن، بعد حقبة ليست بالطويلة، بدأت حالات فردية تخرج عن هذا السياق، وتتمرد على هذه التبعية، وبدأنا نسجل أسماء أدباء مبدعين قادرين على الوقوف على سوقهم بدءا من الشاعر يحيى الغزال ومرورا بالقسطلي والرمادي ثم ابن شهيد وابن حزم وابن زيدون وابن حمديس وابن خفاجة وانتهاءً بابن الخطيب وابن زمرك، وبين هذا وذاك أسماء كثيرة، فالأدب الأندلسي يمثل دورة متكاملة من تراثنا العربي الإسلامي في رقعة معينة وخلال حقبة زمنية محددة،هي حياة الدولة الإسلامية في شبه جزيرة ايبرية.

وفي هذا البحث سنحاول أن نقف عند صورة من صور الأدب تمثل مقدارا من الأصالة والإبداع والتجديد في ذهنية أدباء الأندلس، وتعبر عن روح التفرد وبناء الشخصية القومية الأندلسية لديهم، دون الانفصال أو القطعية عن الشرق، نقاط اللقاء عديدة، كما إن سمات الابتعاد كثيرة هي الأخرى، إنها تعبير عن شخصية عربية مسلمة بروحها ولغتها وجذورها، ولكنها أندلسية بصورها وتعبيراتها وخيالاتها وسماتها العامة.

وهذه الصورة هي في الحقيقة نموذج يمثل روح التجديد والإبداع التي انطلقت في القرنين الخامس والسادس الهجريين بل هي انعطافة رائعة في حياة الشعر الأندلسي ولوحة فنية قل نظيرها، تلكم هي اللوحة الرائعة التي قدمها الشاعر المرهف الأندلسي بن خفاجة المولود عام (1450 هـ) [1].

لقد كان ابن خفاجة في شبابه وكهولته مولعا بالطبيعة والعيش في أحضانها وتمضية أيام وليال تحت ظلالها، في كنف أشجارها ورياضها، يلهو وأصحابه بما

---

(1) ابن خفاجة: هو إسحاق إبراهيم بن خفاجة (450–533 هـ) شاعر مطبوع كان في شبيبته ماجنا، مخلوع الرسن في ميدان اللهو، متصرفا في فنون الإبداع،شعشع القول وروقه ومد في ميدان الإعجاز طلقه،فجاء نظامه ارق من النفس العليل، وأنق من الروض البليل وكان مغرى بوصف الأنهار والأزهار، وقد نسك في أواخر أيامه وتزهد، وله ديوان شعر منشور. انظر ترجمته وأخباره في الذخيرة ق3 م2541 وما بعدها القلائد 2: 379 المطمح ص 348 البغية رقم 512 المغرب 368/2 وفيات الأعيان 57،56/1 نفح الطيب (في صفحات عديدة متفرقة).

استلذ وطاب من وسائل المتعة والانبساط، لا يوقفهم رادع ولا وازع [1]، فاستحوذت الطبيعة على لغته وصوره وأفكاره، وطبعت جل شعره بطابعها ووسمته بميسمها، حتى لكأنها استغرقت خياله ونفسه[2]، فكانت تسري بألوانها وصورها في عروقه، وتهيمن على أحاسيسه، ولولوعه الشديد بها، ولإكثاره من وصف مظاهرها سمي " بجنان الأندلس " و"بصنوبري الأندلس"، وبرغم ما شاع عنه من تعلق بالطبيعة والتغني بجمالها، ومن مطاوعة لغته في إبداع الصور والأخيلة والتشبيهات الرقيقة الرائعة في الوصف، فان بعض الدارسين له أبوا أن يجعلوه شاعر الأطيار المغردة والأزهار المتفتحة والرياض الضاحكة[3] فان من يطالع ديوانه ويدرس مضامينه بعناية لا سيما قصائد الشيخوخة يوافق الدكتورة فاطمة طحطح على رأيها في أن ابن خفاجة هو شاعر حنين وندب وبكاء لمعاهد الشبيبة[4]، فقد استحوذت على الشاعر مشاعر الخوف والإحساس بدنو النهاية، فطغت على شعره في هذه المرحلة،مسحة كئيبة حزينة،يغلب عليها الاستذكار والاسترجاع ، وأسلوب المقارنة والمقابلة بين حالتين متناقضتين متقاطعتين، الشباب والشيخوخة، القوة والضعف، وأخذت تلح عليه تلك الهواجس،وتقلقه تلك المشاعر والأحاسيس فتزيد من ألمه، فيعتريه شعور بالذوبان والذبول، فهو كالشمعة يتضاءل لهيبها وتوهجها مع كل لحظة تمر بها، وهو هكذا.. كلما تقدم به السن ازداد خوفا ورعبا واشتد ترقبا للآتي الذي لا يسر :

إلا أنهـا سـن تزيـد وتـنقص ونفضـة حمـى تعترينـي فـارقص[5]

(1) انظر: الذخيرة ق3 م 2: 541

(2) انظر: الفن ومذاهبه في الشعر العربي للدكتور شوقي ضيف ص 323 ط2،مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1364، 1945 م.

(3) الغربة والحنين في الشعر الأندلسي، تأليف فاطمة طحطح ص 207 ، منشورات كلية الآداب، دار العلوم الإنسانية بالرباط سلسلة رسائل وأطروحات رقم 19 سنة 1993.

(4) المصدر السابق ص 207.

(5) ديوان ابن خفاجة: تحقيق الدكتور سيد مصطفى غازي،ق 216، منشأة المعارف بالإسكندرية 1960.

انـه يعـيش حالـة تصـادم وتنـاقض " فكلمـا امتـد الـزمن الـى الأمـام تراجـع الشـاعر الـى الوراء،كـان هنـاك تسـابقا عكسـيا بـين الطـرفين، فالزيـادة تعنـي النقصـان، والتقـدم يعنـي التـأخر، انـه الصـراع الأبـدي بـين الإنسـان والـزمن [1] " وهـذا الصـراع هـو مصـدر قلقـه وألمـه... ومصـدر معاناتـه التـي ظلـت تلازمـه بقيــة أيامــه، ولا تقــرأ قصــيدة قالهــا أثنــاء هــذه المرحلــة (مرحلــة الشــيخوخة والشــيخوخة المتقدمــة) إلا تحــس بهــاجس ذلــك الصــراع الخفــي يقـض مضـجعه ويـزعج أيامـه، ويرهقـه فـلا يسـتطيع الخـلاص منـه أو التحـرر مـن شـبحه، فظـل الجـزع مـن النهايـة الحتميـة يلاحقـه، وظلـت مخـاوف المـوت تـراوده، وهـواجس الفنـاء ترعبـه، فكـان يقـف مرتجفـا أمـام احـد الجبـال ويصـيح بصــوت عــال " إبــراهيم... أتمــوت " فيجيــب الصــدى... تمــوت... وحينهــا تتلبســه قشـعريرة، ويتملكــه حـزن عميـق، فتتهـاوى فرائصـه، وتضـعف مقاومتـه وإرادتــه، فينهـار وتسـتحوذ عليـه صـعقة هـي اقـرب الـى صـعقة المـوت حتـى يخـر مغشـيا عليـه[2]، وتتضـح هـذه الهـواجس أكثـر واشـد فـي قصـائده التـي أنشـاها أثنـاء تنقلاتـه ورحلاتـه فـي الليـل، فكـأن السـرى يثيـر لديـه الكثيـر مـن الــذكريات الخــوالي ويضــع أمــام عينيــه جهامــة الأيــام القابلــة وســوداوية المصـير الـذي ينـدفع إليـه، لقـد تلبسـته خشـية المـوت، وتغلغلـت فـي كـل خليـة مـن خلايـاه، بـل فـي كـل جزيئـه وذرة مـن جزيئـات كيانـه،وذرات بنائـه المـادي، وملكــت عليـــه حواســـه ومشـــاعره فعـــاد أســـيرا لهـــا. وقـــد تنبـــه البـــاحثون المعاصـرون للشـاعر الـى أغراضـه وإلحاحـه فـي وصـف السـرى، ومـا يثيـره فـي أعماقـه مـن هـواجس ونـوازع، فقـد أشـار الـى ذلـك معاصـره ابـن بسـام بقولـه " إن وصـف سـراه – يعنـي ابـن خفاجـة – والليـل بهـيم مـا لـه وضـوح وخـد الثـرى بالنـدى منضـوح، فناهيـك مـن غـرض انفـرد بمضـماره، وتجـرد لحمـي ذمـاره[3]،

(1) الغربة والحنين ص 211.

(2) بغية الملتمس، ص 203،202 ترجمة رقم 502.

(3) الذخيرة: ق3 م 2: 541

وقد ولدت لديه تلك التأملات الليلية والخلوات الانفرادية، وهو على ظهر جواده عبر الخلوات بلا سكون أو ركون أو استقرار، ولدت لديه إحساسا حادا وعنيفا بما تتركه حوافر الزمن من فجوات في دروب الحياة، فاندفع أواخر أيامه الى التنسك والزهد والانصراف عن لهو الحياة وملذاتها، لقد أصيب بقنوط ويأس وملل.

وفي عديد من قصائده التي نظمها خلال هذه المرحلة من حياته تتمثل هذه الخواطر والأحاسيس وتبرز على السطح لتعبر عن هواجسه النفسية، وقلقه اليومي، وطالما أتت عبر أوصاف الطبيعة ومن خلال الاندماج في ظواهرها، وقد يبالغ الشاعر في الإسقاط فيدع بعض مظاهر الطبيعة تتحدث بلسانه، وتنقل انفعالاته ومشاعره، ولعل قصيدته (البائية) في وصف الجبل خير نماذجه التي تجسم تلك الخاصية، وتبرز بوضوح ذلك الاندماج والتفاعل والتشخيص، حتى يكاد القارئ أو السامع ليحس بأنسنه (الجبل)، فيمثله شيخا وقورا مملوءً حكمة وموعظة، يستنطقه الشاعر ويلقي عليه همومه ومخاوفه، فيجد عنده الاطمئنان وراحة البال والنفس.

يستفتح ابن خفاجة القصيدة بقسم مقرون باستفهام وتساؤل، فيه الكثير من الاستغراب لاستمرارية وضعه المؤلم الذي لا يعرف الركون ولا السكون، انه في رحلة دائمة، وفي سفر مستمر لا نهاية له، ولا غاية، يتنقل من مكان الى آخر، ومن موقع الى ثان، ممزقا بين تشريق و تغريب، وحيدا بلا أنيس ولا صديق.. ليس له دار أو مأوى يركن إليه، يعتلي ظهور النجائب، وتتقاذفه الأهواء والرياح الهوج، قدره أن يكون ممتطيا قتود الركائب في رحلة طويلة لا هدف لها ولا نهاية.. وحيدا فريدا بلا جار ولاصديق سوى الحسام، تغرقه ظلمة الليل البهيم.. ليل سرمدي، يحلم، دون جدوى، بفجر منير أو اشراقة مضيئة تزيح عنه هذا الضيق والاكتئاب، وتفتح أمام ناظريه آفاقا جديدة مسرة فرحة... إنها رحلة عصيبة، ومعاناة صعبة يبحث عن بصيص أمل، ويحلم بومضة نور، فلا يواجه سوى الضياع والفشل، ولا يرى سوى آمال تخبو وتتلاشى، وسرعان ما تواجهه الأقدار بما لا يشتهي ويهوى، ولن يكون حصاده سوى وعود كاذبة، أو ذئب كاسر مفترس،

تبرق عيناه وتلتمع أسنانه وثناياه، اغبر قاطب الجبين،مكفهر، متحفز لينقض عليه... إنها مفارقات الأقدار... يبذل جهده بإصرار بحثا عن الاستقرار والأمان، فيباغته شبح الموت والهلاك، تختلط الألوان في نظره، فليس الفجر ما نعرفه، ولا النور ما نعهده، ولكنها أنياب بيض لامعة تحمل الوحشية والقسوة والافتراس.

ويبلغ التناقض مداه في صورتين متقابلتين فالشاعر حزين كئيب فريد، في حين ان الذئب ضاحك مبتسم، وأي ابتسام هذا:

إذا رأيــت نيــوب الليــث باســمة فـــلا تظـــنن أن الليـــث مبتســـم

أي سخرية هذه، وأي ضدية تتقاطع وترتسم في أعماقه، فهذه الرحلة وهذه المعاناة ما هي إلا رحلة نفسية داخل أغوار الشاعر أكثر منها رحلة واقعية، إنها رحلة الخوف والوحدة [1].

بعيشـك هـل تـدري، أهـوج الجنائـب تخــب برحلــي أم ظهــور النجائــب[2]

ليس الاضطراب والقلق هما همومه فحسب بل الوحدة والانفراد وفقدان الأحباب والصحاب، والأكثر من ذلك هو فقدان الدار التي يستكن إليها ويستقر بها...والزوجة التي يركن إليها فتغمره بالحب والحنان والدفء والمودة التي هو ألان أحوج ما يكون إليها... فهو بلا مأوى يعود إليه ولا صاحب يسامره ويؤانسه، يعيش وحشة قاتله وعزلة مملة بل غربة خانقة مميتة:

وحيــداً تهــاداني الفيــافي فــاجتلي وجــوه المنايــا فــي قنــاع الغياهــب
ولا جــار إلا مــن حســام مصــمم ولا دار إلا فـــي قتـــود الركائـــب

---

(1) الغربة والحنين ص 219

(2) ديوان ابن خفاجة ص 215 ق 164، وفي رواية الذخيرة (وعيشك) 586/3

في هذه الأجواء التي ألمت به داخليا: قلق... تمزق... وحدة... انفراد... هموم... غموم كآبة موحشة سوداء... انتقال وارتحال ابدي... وخارجيا:ظلام دامس لا نجم فيه، ولا قمر، ريح هوج قفار كالحة جرداء، وليل نابغي لا أمل في انفراجه، مغمور باسىً عميق وحزن مرير، في هذه الأجواء يسعى الشاعر جاهدا أن يبعد جهامتها وبؤسها وكابتها بتفجير آمال بيض في داخل نفسه، وأن يضاحك ثغور الأماني الجميلة السعيدة التي تتولد في ذاته ويشغل بها وجدانه وفكره.. نوع من التهرب من المخاوف والأشباح التي تتراءى له في هذه الخلوات المقفرة:

ولا أنس إلا أن أضاحك ساعة ثغور الأماني في وجوه المطالب

إنها أحلام زائفة، بل سحب خلب لا خير فيها، ولا غيث... الظلام يخيم على الكون فتسود الدنيا في عينيه، وتنغمر أعماقه فيه أيضا،فكأنه يغوص في بحر لجي لا قرار له.. ليل حالك اسود كثيف لا نهاية له.. متباطئ السير.. ليل سرمدي:

بليل إذا ما قلت قد باد فانقضى تكشف عن وعد من الظن كاذب

إنها لوحات التناقض والتقابل السلبي بين داخله ومحيطه الخارجي، بين أمانيه وأحلامه وبين واقعه العبوس الذي يرهقه ويضغط على أعصابه، ويكشف أمامه زيف تلك الأمنيات وكذبها، فيصاب الشاعر بإحباط وقنوط، وسرعان ما تخبو كل آماله وتتلاشى كل أحلامه، ويدرك إن ما كان يعتلج في وجدانه من بريق أمل بفجر مشرق أو بنور بارق، يزيلان عنه عتمة ذلك الليل البهيم، ليس إلا أوهاما... انه الموت المهلك ينتظره متمثلا، بذئب تبرق عيناه، وتلتمع أنيابه، مكفهرا،متحفزا للافتراس:

فمزقت جيب الليل عن شخص أطلس تطلع وضاح المباسم قاطب

إنها صورة الموت، صورة مخيفة وليدة خيال مرعوب مفزوع، ومن السخرية أن يتراءى هذا الذئب كأنه مبتسم فرح بفريسته "تطلع وضاح المباسم" أية سخرية

هذه.. وأي ابتسام... وصورة الذئب هي الأخرى لوحة للتناقض والتقابل فهو وضاح المباسم، وهو في الوقت نفسه، قاطب الملامح مكفهر الجبين، وهو يبدي أنيابا بيضا مبتسمة تخفي وراءها الافتراس والردى.

هذه الخيالات والصور التي تتولد في مخيلة الشاعر ما هي إلا انعكاس لحالته النفسية،ومشاعره الحزينة، فالموت يتربص به في كل لحظة ومع كل التفاتة، وعند كل حركة.والفناء يخيم على الأجواء كلها ويحوم حولها.وقد اعتبر الدكتور شوقي ضيف صورة هذا البيت من صور ابن خفاجة الطريفة لما تضمنته من ألوان مختلطة وتشخيص متنافر من ضحك وقطوب(1).

ثم بعد هذه المقدمة التي تتحدث عن حالته النفسية ومقدار معاناته وقلقه، يلتفت الشاعر الى وصف الجبل وقامته السامقة الشامخة التي سدت مهب الريح، فيشبهه بشيخ معتم بعمامة سوداء وذوائب حمر.. يحمل من الليالي والأيام الحكمة والحنكة والتجارب،فما كان من الشاعر إلا يصغي الى هذا الخزين من العظات والعبر والعجائب التي يترجمها حال الجبل على صمته، وتنطق بها هيبته وعظمته على خرسه ووجومه، فأستنطقه الشاعر وأصغى إليه، وهو يستعرض تقلبات الدهر، وتلون الأيام والدهور،وتناقض الليالي والأزمان. فكم لجأ إليه من فاتك سفاك، محتميا به، مستندا إليه – وكم كان مستقرا وموطنا لراهب زاهد عاد الى ربه تائبا عن ذنبه، وكم عبرت خلال مساربه ودروبه من قوافل ورواحل، وكم استظل بفيئه وقال بظله من أناس، ولكن كل هذه الوجوه وتلك الصور لم يطل بها المقام ولم يستقر بها المكان:

فما كان إلا أن طوتهم يد الردى   وطارت بهم ريح النوى والنوائب

وهذا هو حال الدنيا – لا تبقى على احد، فكل من عليها فان، إنها مفارقات الحياة وتقلبات الحدثان.

(1) الفن ومذاهبه في الشعر العربي ص 325.

وما نقراه عن رحلة الجبل عبر الدهر،ليس إلا رحلة الشاعر عبر الزمن...إنها محنة الزمن... المحنة الحقيقية التي ترهق أعصاب ابن خفاجة وتزعجه، فصورة الجبل هي صورة الشاعر نفسه الذي عمر طويلا، وعاش وحيدا بلا زوجة ولا أولاد ولا دار ولا أصحاب، وقد مرت به، خلال هذه السنوات الطوال، أجيال عديدة، وتعرف إثناءها على أناس وأصحاب وأصدقاء... ولكنهم ما عادوا الآن،معه، ذهبوا.. وتركوه..

فمنهم من خطفه الموت واحتواه الثرى،(1) ومنهم من أبعدته ظروف العيش وطارت به نوائب الدهر، ومن ثم غدا شاعرنا وحيدا يقتله الضجر والانفراد والاكتئاب حيث لا أنيس ولا جليس.

إنها تجربة الشاعر تروى على لسان الجبل، وما الجبل إلا الشاعر نفسه، لقد عانى أديبنا الكثير في حياته حتى مل العيش وكره تكرار الأحداث والمواقف، فما عاد في الحياة شئ يلذ أو يطيب، وما عاد فيها أمر يشوق أو يغري بالعيش فقد اسودت الدنيا بعينيه،كما هي مسودة في عيون الجبل، فغدا الغناء لديه بكاء، وعاد الضحك دموعا، والرقص ارتجافا وهلعا، لقد عادل كل شئ سلبا:

فما خفق أيكي غير رجفة أضلع ولا نوح ورقي غير صرخة نادب

أصيب الجبل بإحباط ويأس وضجر وملل من طول البقاء والثواء وتكرار الليل والنهار، في حين إن الأصحاب يذهبون بلا عودة، ويرحلون بلا رجوع:

فحتى متى ابقي ويظعن صاحب أودع منه راحلا غير آيب

انه الإحساس الحاد بالتغير وتقلب الأحوال التي تعمق لديه الشعور بالصراع بينه وبين الزمن. فطول البقاء يورث السأم والملل ويميت في الأعماق الشوق

(1) نجد في ديوان الشاعر كثيرا من القصائد في رثاء أصدقائه وإخوانه وأحبابه،انظر الديوان الصفحات 132،133،150،165،205،215،311 وغيرها.

وروح الانبهار،فيصبح الموت رغبة ملحة، وشوقا عارما، وتخلصا من حالة الركود والجمود التي هي الموت ذاته.

وتتزايد إنسانية الجبل تدريجيا في القصيدة،" فإذا هو يمثل صورة أخرى من وقفة الشاعر نفسه أو هو الشاعر نفسه وهو لا يعبر عن طول الصمود ولذة الخلود، وإنما يعبر عن استثقاله للحياة ووحدته بعد ذهاب إخوانه، وكأنه بذلك يعبر عن (قيمة الموت) أي يهون وقعه على نفسه التي تفرق منه، وتحاول الهرب من شبحه المخيف "[1] ،"وهكذا وجد ابن خفاجة مأساته تتجلى في أساة هذا الجبل "[2] وحاله كحاله، فقد سئما البقاء وملا الإقامة في أجواء الوحدة والانفراد، ومرحى بالموت الذي يحمل روح التغيير والتحول،وها هو الشاعر يستنطق الجبل في تضرعه الى الخالق القدير أن يمنحه الخلاص ويهبه الموت:

رحماك يا مولاي دعوة ضارع يمد الى نعماك راحة راغب

إن ابن خفاجة، ومن خلال استنطاق الجماد واستكناه أسراره، واستخلاص الحكمة والموعظة من ذلك الصمت الناطق، يحملنا الى آفاق تأملية، فيها الفلسفة والحكمة، انه يفلسف الحياة، كما يفلسف الموت، وفي هذه القصيدة يغدو الاثنان، الجبل والشاعر واحدا، ويتداخل القطبان ويندمجان في موقف موحد... ويصبح حال الإنسان مثل حال ذلك الجماد الشامخ "فما الشاعر سوى الجبل في صمته وجموده "[3] وكلاهما سيواجهان المصير نفسه،فمهما طال الزمن، وامتد العمر فلا بد من الموت...ولا بد من النهاية،وفي ذلك دعوة من الشاعر لذاته لمواجهة الموت، فلم يبق في الحياة ما يغري بها ويشد إليها، فلقد فقدت بهجتها وتحولت الى سأم دائم وكآبة ملازمة،فليواجه الشاعر قدره بصلابة وتقبل.

---

(1)تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف،الدكتور إحسان عباس:ص 209، دار الثقافة، بيروت،ط 1، 1962.

(2) ملامح الشعر الأندلسي،ص 249.

(3) الغربة والحنين،ص220.

وأمام هذه الحالة يغدو الموت حاجة ملحة، وإنقاذا للأحياء من قسوة الحياة ووحشتها ما دام الزمن، بثوانيه ودقائقه،يحفر برتابة لا تعرف التوقف أعمار المخلوقات،ويطوى،بلا رحمة، الأحباب والأصحاب والخلان. فالموت حتمية لا مفر منها...انه مصير الجميع وقدرهم الذي كتب عليهم،مثلما هو قدرهم في الولادة والحياة. ومن خلال هذه المناجاة المملوءة بالشجن والأسى، بين الشاعر والجبل، وبعد هذا الهمس الباطني الذاتي الذي هو في الحقيقة تعزية الشاعر نفسه، وتصبره على ما ينتظره،وتخفيف لهموم أثقلت كاهله، ومشاعر أرهقته طوال أيامه، وقد وجد في صنوة الجبل عزاء شد من أزره،وقوى من نفسه، وهون عليه مواجهة الموت والفناء[1]، وصورة الجبل هذا لا "تعبر عن طول الصمود ولذة الخلود، وإنما تعبر عن استثقاله للحياة ووحدته بعد ذهاب إخوانه"[2] وأحبائه.

وهكذا تتكاتف أبيات القصيدة، وتتلاحم في لوحة فنية متكاملة متناسقة،تنمو فيها المشاعر والأحاسيس لتترجم عما يعانيه الشاعر نفسه بين أبناء قومه،من انفراد ووحدة واضطراب ورحيل وانتقال، إن محنته في غربته، وغربته في وحدته النفسية، انه التغرب الداخلي مصحوبا بتغرب مادي خارجي، وقد دفعه هذا التغرب الى ما يشبه الزهد والانفراد عن المجتمع، والاكتفاء بالذكريات، واسترجاع الماضي الجميل،وتذكر الأيام الحلوة وليالي السمر والسهر، والتلذذ بما كانت تتسم به من عنفوان وقوة واقتحام. وهذا ما عناه ابن بسام بقوله عن ابن خفاجة "انه قد نسك اليوم نسك ابن اذينة "[3] وابن اذينة احد نساك المدينة المنورة في القرن الأول.

ونرى إن الأبيات الثلاثة الأخيرة شاذة عن القصيدة وخارجة عن إطار التجربة وحقيقة المشهد، وفيها صفة التقرير والاستنتاج بأسلوب مباشر بعيد عن الشعرية والانسيابية.

فاسمعني من وعظه كل عبرة يترجمها عنه لسان التجارب
فسلّى بما أبكى وسرّى بما شجا وكان على ليل السرى خير صاحب

---

(1) انظر: تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف – ص 210.

(2) نفسه ص 210.

(3) الذخيرة ق3 م2:542

وقلـــت وقـــد نكـــبّت عنـــه لطيـــة   ســـلام فانّـــا مـــن مقـــيم وذاهـــب

إن القصيدة البائية في وصف الجبل نمط شعري جديد في الوصف " بل هي نغم شجي وطريف في شعر ابن خفاجة نفسه، وما ذلك إلا لابتعاده عن المنحنى التسجيلي، والنظرة التجزيئية، ولاتسامها بالنجوى النفسية الأخاذة والاندماج الشديد الذي بلغ حد الاستغراق"[(1)].

وبذلك تقدم هذه القصيدة لوحة فنية متكاملة متلاحمة الأجزاء في بنائها تنمو نموا طبيعيا دون تعثر أو تخلخل، وهي لون من الشعر الرومانسي الذي يمتزج مع الطبيعة،ويتداخل معها، ويتفاعل تفاعلا عاطفيا يقوم على الرؤية العميقة، وعلى التشخيص معا[(2)]، وهي لذلك "تعد من أجمل ما أبدعته قرائح الرومانسيين من أدب "[(3)].

(1) ملامح الشعر الأندلسي،ص 248

(2) انظر:تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف – ص 268.

(3) ملامح الشعر الأندلسي، ص 252.

ثبت المصادر والمراجع

1. بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس، لأحمد بن يحيى بن احمد بن عميرة الضبي(ت 599 هـ)، طبع مجريط بمطبعة روخس 1884 م.
2. تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين – للدكتور إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت 1962 م.
3. ديوان ابن خفاجة، تحقيق الدكتور السيد مصطفى غازي – منشأة المعارف بالإسكندرية 1960 م.
4. الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لأبي الحسن علي بن بسام الشنتريني، تحقيق الدكتور إحسان عباس – دار الثقافة – بيروت 1979 م.
5. الغربة والحنين في الشعر الأندلسي – تأليف فاطمة طحطح،منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، جامعة محمد الخامس – سنة 1993 م.
6. الفن ومذاهبه بالشعر العربي: الدكتور شوقي ضيف، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة – ط2، 1364 هـ - 1945 م.
7. قلائد العقيان للفتح بن خاقان (ت 529 هـ)، تحقيق الدكتور حسين خريوش، مكتبة المنار – الأردن 1989 م.
8. مطمح الأنفس ومسرح التآنس لأبي نصر الفتح بن خاقان (ت 529 هـ) تحقيق الدكتور محمد شوابكة. مؤسسة الرسالة. بيروت. ط1 1983
9. ملامح الشعر الأندلسي للدكتور عمر الدقاق – منشورات جامعة حلب ط3،1978م.
10. نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب،تأليف الشيخ احمد بن المقري التلمساني، حققه الدكتور إحسان عباس – دار صادر – بيروت 1408 هـ – 1988 م.